الإرهاب: وأهوال العقائد الضريرة! (*)

العقيدة فى الأصل هى الحكم على الأشياء بعامة، حكماً جازماً لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، والاعتقاد لغة مشتق من مادة "عقد" وينصرف بإجمال إلى معانى التوكيد والتوثيق والإبرام، والأصل فيه ينصرف فى المفهوم الاصطلاحى إلى الاعتقاد الصحيح فعلاً ومحتوىً وموضوعاً ـ المصحوب بالثبات والتيقن والجزم، فى ثقة خالصة من شوائب الزعزعة أو الظن أو التردد أو الميل، وهذا الاعتقاد الصحيح هو الذى قامت عليه الأديان السماوية، وشكل عقيدة كل منها. على أن الاعتقاد بعامة يمكن أن يعبر عن اعتناق واثق مؤكد لفكرة أو مذهب، سياسياً كان أو اقتصادياً أو اجتماعيا.. والعقائد الصحيحة قاسم مشترك فى كل إنجاز حققه البشر أفراداً أو جماعات، لأنه جامع بين سلامة وسداد وصحة الفكرة المعتنقة، وبين قوة ومتانة "العقيدة" وثقة أصحابها فيها واطمئنانهم وخلودهم إليها، وذوبانهم فيها وامتزاجهم بها على نحو يحيلهم إلى قوة هائلة متبصرة، تمضى بعزم وتصميم وبصيرة إلى غايتها مهما لاقت فيها من صعاب ومشاق وأهوال!

على أن الاعتقاد لفظاً أو لغةً، وهو فى الأصل حكم على الأشياء حكماً جازماً ـ يمكن أن يكون ضريراً يركب على فكرة مغلوطة، لايرى ما فيها من غلط أو حول أو انحراف أو خطأ و جموح، فيعتنقها اعتناقاً أعمى يبلغ بها ـ ولغةً أقصد ـ حد العقيد،

(*) ٢٠٠٦/٥/٤.

أى قوة ومتانة اعتناق الفكرة والتمسك بها، والجمود عليها، والانقياد الأعمى لها، والانجراف فيها، والاستسلام لها حتى تتحول إلى عقيدة ضريرة تتفشى من الفرد إلى محيطه القريب المستسلم للفكرة استسلاماً عاجزاً عن رؤية ما فيها من شر وشطط وجموح، فيشكل هذا المزيج المريض قوة ضريرة تصاحب انتشارها وحركتها مخاطر وأهوال تأكل الأخضر واليابس، ولا يسلم من شرها ذات معتنقى هذه العقائد الضريرة الذين تأكلهم نيرانها وهم يحسبون أنفسهم أبطال الفكرة التى يسترخصون أرواحهم - وأرواح غيرهم! - من أجلها!!!

قدرة العقائد الضريرة على الهدم والتدمير والإهلاك، قدرة مخيفة، حملت ولا تزال تحمل للبشرية ركامات من الشر والإيذاء، وتتسبب فى أهوال فظيعة لعل أقربها إلى الأذهان - اتساعاً وهلاكاً - ما جرته النازية والفاشية على البشرية من مآس حصدت أرواح الملايين بالحرب العالمية الثانية، وأحالت دولاً بكاملها إلى أكوام من الدمار والأنقاض والخراب!!! الفكرة الضريرة التى نهضت عليها كل من النازية والفاشية، القائمة على التفوق الجنسى فى النازية، والنعرة القومية وبقاء الأصلح فى الفاشية، تحولت لدى الأتباع إلى "عقيدة" حتى أطلق النازيون على كتاب "كفاحى" لهتلر، أنه "إنجيل" النازية، واتخذ موسولينى رمزاً لعقيدته الفاشية: "عصا السلطان" فى العهد الرومانى القديم، واستطاعت العقيدتان - عن اللغة أتحدث! - أن تضللا ملايين الأتباع، وأن تحشدا وراء هذه الأفكار الضريرة جموعاً هائلة إتخذت منها "عقيدة" وامتزجت فيها واستماتت فى تبنيها والإخلاص الغريب لها، والاندفاع الجامح الأعمى وراءها حتى دفعا بالعالم إلى هاوية سحيقة اكتوى فيها بويلات الحرب العالمية الثانية التى أكلت معها النازيين والفاشيين أنفسهم، وانتهى فصلها الأخير بانتحار هتلر مع إيفا براون فى برلين فى ٣٠ ابريل ١٩٤٥، بينما

أخفقت محاولة بينيتو موسولينى الفرار إلى سويسرا، وأهين إهانات بالغة قبل أن يعدم رمياً بالرصاص هو وعشيقته كلارا بيتاتشى، حيث علقت جثتاهما بميدان عام فى ميلان!!

حضرتنى هذه المشاهد المفزعة، وأنا أتأمل أشلاء الانتحاريين فى تفجيرات الإرهاب الأخيرة فى سيناء.. الرأس المفصول عن الجسد الذى تحول إلى كومة من الأشلاء الممزقة!.. تساءلت وأنا أناظر الصور: أى فكرة حولاء سيطرت على هؤلاء حتى صارت لديهم عقيدة ضريرة لا تعرف ماذا تريد، ولا إلى أى شىء تسعى، وما سر لحظة "الجنون" التى غاب فيها العقل، وهانت الحياة فى نظر صاحبها، فاندفع به اندفاعاً أحمق يقتل نفسه ويدمى أسرته ويقتل معه مجموعة مجهولة له من الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ، ومن الرجال الذين تغربوا يصنعون الحياة ويكابدون السعى للقمة العيش لإقامة أودهم وأود أسرهم وإعالة زوجاتهم اللائى ترملن، وأطفالهم الذين تيتموا؟!!.. ماذا هيمن على هذا الجنون الأحمق حتى غاب الوعى تماماً فى لحظة الإقدام المجنون على هذا الانتحار العبثى الذى لا يحقق شيئا ولا ينجز شيئا إلا الدمار والإهلاك للذات وللغير وعلى غير ما ذنب لأحد ولا حجة على أحد، ودون ما غاية مرئية أو غير مرئية لهذا الجنون الضرير!!

ما هى العقيدة الفاسدة الضريرة التى تسللت إلى هؤلاء وكونت فيهم كل هذا الحمق والجنون؟!. الفداء الذى عرفناه، له هدف وغاية، ولا يدخل فيه الإهلاك وهلاك النفس بلا عائد ولا غاية!! فما هو العائد الذى توهمته هذه العقيدة الضريرة؟!.. هل هو تدمير وإفقار مصر: البلد والوطن، وإصابتها بالكساح بضرب مصالحها القومية؟! لا أظن أن هذا عائد يقدم عليه مصرى عاقل أياً كانت معتقداته أو تراكمات غضبه؟! هل المقصود قتل هؤلاء البسطاء وثكل أمهاتهم وترميل زوجاتهم ويتم أطفالهم ولا جريرة مأخوذة على أحد منهم؟!. وهل يحقق قتلهم هذا العبثى غاية مأمولة يمكن أن تفسر - ولا أقول

تبرر - هذا الحمق والجنون؟!.. هل هذا العبث الضرير قلب الدنيا أو غير أنظمة أو حكومات، أو بدل أوضاعاً أو أحوالاً، أو له أى حصاد إلاّ الهلاك والإهلاك الذى كان ذات الانتحارى مادة له تركت وراءها فى أسرته تلالا من الأحزان على ابن لها بلغ به جموحه الضرير أن أهلك نفسه وأضنى أهله وقتل بلا هدف أرواحاً بريئة لا ذنب لها ولا جريرة!!

هذه "العقيدة" "الضريرة" التى ركبت هؤلاء وتمكنت منهم، تحتاج إلى نظر وبحث وفحص وتأمل وتمحيص، وتحتاج إلى دراسة واسعة عميقة من علماء النفس والاجتماع.. فهذه العقائد الضريرة غريبة غرابة لا يمكن أن تكون إلا مرضية!.. ثم هى لا تتشكل فجأة بين يوم وليلة، وإنما هى حصاد تراكمات بعضها بفعل التربة والظروف، وأكثرها مخطط مرسوم يلعب على أوتار هذه التراكمات لعباً لا يخلو من مسح لكل ما سبق أن استقر بالميراث والبيئة فى أخلاد هؤلاء، لتهيئة الفراغ الممسوح لاستقبال الفكر المريض ثم ترسيخه ثم تحويله إلى عقيدة متمكنة لا يرى المعتنق لها، وليس بمقدوره أن يرى، ما فيها من فساد وخداع ومغالطة!.. فلو أدرك ذلك لما هانت عليه روحه حتى لو هانت عليه أرواح الناس!. الذى يهدر حياته هذا الإهدار العبثى لغير مبدأ ولا عقيدة صحيحة ولا هدف عاقل، مصاب بداء وبيل يحمل به جرثومة عقيدة فاسدة ضريرة تقوده وتدفعه هذا الاندفاع الأحمق المجنون إلى الهلاك والإهلاك!. نعمْ المطاردة الأمنية لهذا الجنون الضرير واجبة، ولكن المنابع لن تجفف إلاّ إذا خرجنا من زقاق الانحصار فى الملاحقة الأمنية - مع أهمية استمرارها - إلى ميدان البحث والتفتيش فى التربة والظروف والتراكمات التى تهيئ الأرضية لقوى خبيثة، عالمة مدركة تعرف ماذا تريد لبث أفكارها المريضة، والسيطرة على مخدوعين غيبت عقولهم ومحت قيمهم وبصيرتهم وأحلت محلها أفكاراً مغلوطة مريضة صارت عقيدة ضريرة تقود إلى هذا الحمق والجنون الذى يكابد ويلاته الشعب والوطن!!